

التنظير التربوي والفعل التعليمي:

من ضيق التحيز الغربي إلى سعة العالمية والكونية

Educational Theory and Didactic Act:

From the narrowness of Western prejudice to the vastness of the universal and cosmic

د. سمير الخال*

جامعة السلطان مولاي سليمان - بني ملال، المغرب، elkhal.samir@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/01 تاريخ القبول: 2022/05/31 تاريخ النشر: 2022/06/14

ملخص:

شكلت الممارسة الصفية التربوية التعليمية -على مر العصور والأزمان- الشغل الشاغل لكل المجتمعات البشرية والجماعات الإنسانية على حد سواء. إلا أن محاولة تفسير ظهورها ونشأتها تصورا سليما من جهة، وتطبيقا صحيحا من جهة أخرى، قد ظل محكوما بنظرات لا تخلو في معظمها من تحيزات لحضارة خاصة أو ثقافة محددة، سواء بشكل واعٍ ومقصود، أو بصورة لا واعية اعتباطية. وهذا المساهمة العلمية تروم مناقشة قضية انحصار التنظير للممارسة التربوية في التوجهات البيداغوجية الحديثة في ارتباطها اللصيق بالغرب ومنظومته الثقافية والحضارية في تجاهل تام لجهود الفكر الإنساني في عموميته، وللتراث الإسلامي في خصوصيته، من أجل فتح آفاق تفسيرية للتنظير والممارسة التربوية بشكل أوسع يسمح بالانفتاح على عالمية هذه الظاهرة وكونيتها دون تحيز مقيت لثقافة وحضارة على حساب باقي الحضارات والثقافات الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: التربية والتعليم؛ التحيز؛ الغرب؛ الربانية؛ العالمية والكونية.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The educational and educational classroom practice - throughout the ages and times - has been the preoccupation of all human societies and human groups alike. However, the attempt to explain its emergence and emergence with a sound conception on the one hand, and a correct application on the other hand, has been governed by views that are mostly biased towards a particular civilization or a specific culture, whether consciously and intentionally, or in an unconscious and arbitrary manner. This scientific contribution aims to discuss the issue of theorization of educational practice being restricted to modern pedagogical trends in its close association with the West and its cultural and civilizational system, in complete disregard for the efforts of human thought in its generality, and of the Islamic heritage in its specificity, in order to open explanatory horizons for theorizing and educational practice in a broader manner that allows openness to the universality of this The phenomenon and its universality without abhorrent prejudice to culture and civilization at the expense of other civilizations and human cultures.

Keywords: Education and Pedagogy; Bias; The West; the goddess; Global and Cosmic.

مقدمة:

منذ أن خلق الله تعالى الإنسان واستخلفه في الأرض لإعمارها بالخير والصلاح، ومهمة التربية والتعليم تحتل صدارة الاهتمامات الإنسانية والرهانات البشرية، عبر المسيرة التاريخية الطويلة للجنس الآدمي على هذا الكوكب.

والسبب في ذلك «أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات، في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكنّ وغير ذلك. وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به، لتحصيل معاشه، والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيب لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، والعمل به واتباع صلاح أخراه»¹.

ولذلك، كان طبيعياً أن تتحد الرؤى الإنسانية على أهمية الهدف التربوي، وتتفق التصورات البشرية على ضرورة الحدث التعليمي، بالنظر إلى التأثير الملموس على مستقبل الفرد، والجماعة، والإنسانية جمعاء. وبيان ذلك يجليه المقصد من المشروع التربوي التعليمي، من حيث قدرته التأثيرية على اندماج الفرد في مجتمعه وخدمته لفلسفته الاجتماعية وسعيه إلى الرقي البشري، من خلال تزويد هذا الفرد بالقيم الإنسانية والمهارات المهنية الكفيلة بصلاحه في نفسه وفي علاقته بمجتمعه وبسائر بني جنسه الآدمي.

وبالرغم مما سبقت الإشارة إليه من أهمية الفعل التربوي التعليمي في حياة الأفراد والمجتمعات والبشرية، إلا أن ذلك لا يخفي كونه محلاً لاختلاف شديد بين التوجهات الكبرى للأمم والثقافات والحضارات من حيث منطلقاته الفلسفية الناظمة، أو موجهاته المنهجية الحاضنة.

ولذلك، فليس غريباً أن نجد تعليماً علمانياً يركز على المواد الدراسية التي تؤهله للاندماج السليم في مجتمعه، وإغفال المواد الدراسية ذات الطبيعة الدينية، بالنظر إلى أن الدين شأن ثانوي وخاص بالفرد ذاته.

وبالمقابل، فإننا نجد كذلك نظاماً تعليمياً جامعاً بين المواد الدراسية ذات المؤهلات العملية للاندماج مع المتطلبات المهنية للمجتمع، وبين المواد الدراسية الدينية، من أجل بناء عقلية معتدلة جامعة بين صلاح الفرد في دينه ودينه.

إلى ههنا تبدو الأمور طبيعية بالنظر إلى تسلسلها المنطقي. إلا أن هناك أمراً يستدعي توقفاً معرفياً خاصاً عندما يدعي أحد الأعلام أو المنظرين أو الباحثين اقتضار التنظير للفعل التربوي التعليمي على جهة معينة واختصاصه بحضارة وثقافة خاصة في إهمال تام لجهود الفكر الإنساني عامة وللتراث الإسلامي خاصة في هذه القضية ذاتها.

وإذ يشكل هذا المنطلق تحيزاً ظاهراً لثقافة على حساب باقي الثقافات الأخرى، بالنظر إلى أن مقتضاه اعتبار هذه الثقافة أصل كل خير يصيب البشرية، في مقابل إغفال جهود باقي الحضارات في الفعل الإنساني عموماً، والتربوي بوجه خاص.

تبعاً لذلك، جاءت هذه المساهمة العلمية من أجل محاولة الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف يمكن إعادة توجيه التنظير للفعل التربوي التعليمي بإخراجه من التحيز الغربي قصد انفتاحه على العالمية والكونية؟

وهكذا، تبرز الأهمية المعرفية لهذه الورقة البحثية من خلال سعيها إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تحديد الشروط التاريخية والمعرفية المتحكمة في التحيز الغربي في بعده التربوي التعليمي.
- مناقشة فكرة التحيز للمنظومة الغربية في بعدها التربوي التعليمي من خلال عرضها على التراث العلمي الإسلامي خاصة ما له ارتباط بتفسير القرآن الكريم.

- دراسة فكرة التحيز هذه من خلال عرضها على متون الحديث النبوي وشروحاته.

- تجميع خلاصات واستنتاجات تروم نقد هذه الفكرة وتقويمها.

ولتحقيق هذه الأهداف، فقد تتبعنا خطة العمل التالية:

مقدمة؛ وقد رامت تأطير الإشكالية على المستوى التاريخي والمعرفي.

العنصر الأول: التحيز الغربي للتنظير التربوي من منظور التراث التفسيري للقرآن الكريم.

العنصر الثاني: التحيز الغربي للتنظير التربوي من زاوية تراث الحديث وشروحاته.

العنصر الثالث: التنظير التربوي بين ضيق التحيز الغربي وسعة العالمية والكونية.

خاتمة: تضمنت أهم الخلاصات والاستنتاجات.

1. التحيز الغربي للتنظير التربوي من منظور التراث التفسيري للقرآن الكريم:

قد يستغرب الإنسان حينما يقف على تصورات يدعي أصحابها بأن الغرب هم بُناة المجد والعلم والحضارة، وأن غيرهم إنما ظلوا عالة عليهم ثقافيا ومعرفيا حضاريا بشكل عام. لكن الأشد غرابة حينما يصدر هذا الرأي - أو قريب منه، أو ما يسير في مجراه - من أبناء المسلمين، وخاصة إذا كان القائل من أهل العلم أو الفقه أو النظر.

وفي السياق ذاته، وفي إطار إبرازه لأهمية المقدمة الآجرومية²، يرى الأستاذ عبد الله كنون³ بأنها قد راعت «نفسية الطفل وأصول التربية الحديثة بالتدرج من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب»⁴. فهذا الأستاذ - نموذجاً وإلا فغيره كثير - يرى بأن المرجع الأعلى للتربية، هو النظر إلى كونها حديثة، والتي لا يمكن تصورها حالياً وواقعياً إلا بربطها بالفكر الغربي، وأهمية دوره في الرقي بعلوم التربية والتدريس.

فمن لوازم هذا القول أن التنظير للفعل التربوي التعليمي لم يعرفه المسلمون ولم يكونوا مؤهلين لممارسته، وإنما ارتبط بالفكر الغربي في علاقته بحملة نابليون على مصر، أو غيرها من الأحداث التاريخية التي تؤرخ لاحتكاك الغرب وغزوه للمسلمين، حاملاً إليهم روح "الحضارة"، ونور "الثقافة"، ومفاتيح "التقدم"، كما يحلو للبعض لتمجيد الغرب، باعتباره أصل كل نتاج علمي وحضاري محترم.

ولمناقشة انحصار أصول التربية بالتنظير الفكري للغرب لا غير، نطرق باب تفسير القرآن الكريم، من خلال محاولات المفسرين تحديد دلالة لفظ "الربانيين"، من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران، 79].

ومن هذه النصوص:

- ما قاله السمعاني: «قال سعيد بن جبير: الرباني: الفقيه العالم الذي يعمل بعلمه. وقال الضحاك: الرباني: العالم الحكيم. [...] وقيل هو من التربية، فالرباني هو الذي ربي بصغار العلم حتى بلغ كباره»⁵؛
- ومن ذلك كذلك ما ذكره البغوي: «اختلفوا فيه قال علي وابن عباس والحسن: كونوا فقهاء علماء وقال قتادة: حكماء وعلماء وقال سعيد بن جبير: العالم الذي يعمل بعلمه، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: فقهاء معلمين.

وقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»⁶؛

- وقال ابن عطية: «واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له رباني، فقال أبو رزين: الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني الفقيه، وقال قتادة وغيره: الرباني العالم الخليل، وقال ابن عباس: هو

- الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد: الرباني والي الأمر، يرب الناس أي يصلحهم، فالربانيون الولاة والأخبار والعلماء، وقال مجاهد: الرباني فوق الخير لأن الخير هو العالم والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية وما يصلحهم في دينهم وديناهم، وفي البخاري: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم»⁷؛
- وقال القرطبي: «والربانيون واحد منهم رباني منسوب إلى الرب. والرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم، وكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور»⁸؛
- ومما جاء به ابن جزري: «رَبَائِيٌّ جمع رباني، وهو العالم، وقيل: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم»⁹؛
- وأيضا ما قاله الخازن: «واختلفوا في معنى الرباني فقال ابن عباس: معناه كونوا فقهاء علماء وعنه كونوا فقهاء معلمين وقيل معناه حكماء حكماء، وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم وكبارهم»¹⁰؛
- ومن هذا القبيل ما أورده أبو حيان الأندلسي: «والرباني الحكيم العالم، قاله قتادة، وأبو رزين. أو: الفقيه، قاله علي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد. أو: العالم الخليم، قاله قتادة وغيره. أو: الحكيم الفقيه، قاله ابن عباس. أو: الفقيه العلم، قاله الحسن، والضحاك. [...] وفي البخاري: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم»¹¹؛
- وما نص عليه الثعالبي: «وفي التفسير: كونوا فقهاء، علماء، عاملين. قاله علي وابن عباس والحسن. [...] وقيل: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم»¹²؛
- ومن هذا الباب قول ابن عجيبة: «والرباني: هو الذي يُربي الناس ويُؤدبهم ويُهذّبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس: (هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم)»¹³؛
- وأيضا ما نص علي الشوكاني: «والرباني: منسوب إلى الرب، [...] قيل: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارهم، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور»¹⁴؛
- وهو نفس الكلام الذي أورده صديق حسن خان في تفسيره¹⁵.
- ورغم الاختلاف بين هؤلاء المفسرين من حيث مناهجهم التفسيرية، إلا أن تأملا في نصوصهم التأويلية لمعنى "الربانيين" في آية آل عمران السابقة - وإن كان الإعراض حاصلًا عن غيرها خشية الإطالة بما لا يتماشى والمقصد الخاص من هذا المساهمة العلمية - ليرشدنا إلى تسجيل ملاحظات نجملها في النقاط التالية؛ بالبداية بحكاية إجماع المفسرين - ممن أوردت نصوصهم التوثيقية قريبا - بأن من المعاني التي تقبلها آية آل عمران هذه، من لفظ "الربانيين"، هي دلالتها على الذين يربون "الناس بصغار العلم قبل كبارهم".

على أن هذه النصوص التوثيقية ترشدنا كذلك، إلى أن هذا القول ليس جديدا في الثقافة الإسلامية، لظهوره مرتبطا بحملة نابليون على مصر، أو غيرها من الأحداث التاريخية التي تؤرخ لاحتكاك الغرب بالمسلمين، حاملا إليهم روح "الحضارة" ونور "الثقافة"، ومفاتيح "التقدم"، كما يحلو لرواد الهزيمة النفسية تمجيد الغرب، بنسبة إليه كل نتاج علمي ومعرفي رصين، أو منتوج ثقافي وحضاري محترم. وفي السياق ذاته، وبالرغم من أن المقصد الخالص ههنا ليس هو البحث عن دلالة مفهوم "الربانيين" في الآية السابقة من آل عمران، وتحقيق القول في دلالتها تفسيريا، فإن هذه الدراسة سَنَنْصَبُ على تناول التاريخي الإسلامي الذي يربط الربانيين ههنا بالمعلم لصغار العلم قبل كباره، على الامتداد الزمني للقرن الخامس الهجري مع السمعاني (المتوفى سنة 489هـ)، وإلى القرن الرابع الهجري مع صديق حسن خان (المتوفى سنة 1307هـ).

وهذا يعني بأن قضية التنظير لوظيفة المعلم، في أدائه لمسؤولياته التعليمية لتلاميذه وطلبته، قد كانت محل اهتمام من طرف الفكر الإسلامي تاريخيا، وخاصة المفسرين منهم، من حيث تنظيرهم لهذه الوظيفة التعليمية، ليتم ربطها بالمعلم لصغار العلم قبل كباره.

على أن من الإشارات المتميزة التي يمكن التقاطها من خلال تأمل نصوص المفسرين لدلالة آل عمران السابقة، هو إحالتها إلى نص ذي قيمة علمية كبيرة، من خلال ربطه بأصله في صحيح البخاري. وهذه النقطة الأخيرة تدعونا إلى تغيير الوجهة العلمية هذه المرة، مع البقاء دائما تحت لواء نفس الثقافة الحاضرة لهذه المعارف، ألا وهي الثقافة الإسلامية، من خلال طرق باب متون الحديث، وخاصة صحيح البخاري.

2. التحيز الغربي للتنظير التربوي من زاوية تراث الحديث وشروحاته:

من النصوص الحديثية التي تسعفنا لخدمة الإشكالية المطروحة ما ذكره البخاري في باب "العلم قبل القول والعمل" بنبيهه إلى فضل العلم وأهله، كما في «قول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19] فبدأ بالعلم «وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة» وقال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28] وقال: ﴿وَمَا يَعْقُلُهَا إِلَّا أَلْعَلْمُونَ﴾ [العنكبوت: 43] ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10] وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» [ص: 25] وإنما العلم بالتعلم" وقال أبو ذر: «لو وضعتم الصمصامة على هذه -وأشار إلى ففاه - ثم ظننت أني أنفذ كلمة

سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها» وقال ابن عباس: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ [آل عمران: 79] "حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره"¹⁶.

وفي إطار تعليقه على كلام البخاري السابق، يقول ابن حجر: «[...] قيل سمو بذلك لعلمهم بالرب سبحانه وتعالى وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره أي بالتدرّج وقيل غير ذلك ومنه قوله ربيون واحدة ربي قوله يريها كما يري هو من التربية وهي القيام على الشيء وإصلاحه»¹⁷.
على أن كلام البخاري السابق لم يستوقف ابن حجر فقط، بل وجدنا غيره من شراح صحيح البخاري، ممن استوقفهم لفظ "الربانيين" ههنا. ومن هؤلاء العلماء العيني الذي يقول: «ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

هذا حكاية البخاري عن قول بعضهم، وهو من التربية أي: الذي يربي الناس بجزئيات العلم قبل كلياته، أو بفروعه قبل أصوله، أو بمقدماته قبل مقاصده»¹⁸.

على أن هذا المقام يستلزم التنبيه - مرة أخرى - إلى المقصد الخاص من إيراد كلام البخاري السابق، وما تبعه من قولي شارحي الصحيح (أقصد: ابن حجر والعيني)، ليس هو البحث العلمي عن المدلول الشرعي للفظ "الربانيين" الوارد في الآية 78 من سورة آل عمران السابقة، مما ليس محله الخاص ههنا. وهذا يعني بأن المقصد من إيراد هذه النصوص هو التنبيه إلى قضية ربط مفهوم "الربانيين" السابق بالمعلم الذي يربي صغار العلم قبل كباره.

إلا أن تأملا متأنيا في كلامي ابن حجر والعيني السابقين، يرشدنا إلى قضية ذات بالٍ متميز تتعلق بما نحن في صدد الحديث عنه، ويتعلق الأمر ب:

- قول ابن حجر «[...] هو من التربية وهي القيام على الشيء وإصلاحه»¹⁹؛
- ويقول العيني: «[...] وهو من التربية أي: الذي يربي الناس بجزئيات العلم قبل كلياته، أو بفروعه قبل أصوله، أو بمقدماته قبل مقاصده»²⁰.

فالملاحظ أن ابن حجر يرشدنا إلى أن مدار التربية على القيام على الشيء وإصلاحه. وهذا يعني بأن تربية الأطفال والنشء والطلاب لا معنى لها في غياب القيام على أمرهم وإصلاحهم. وللوصول إلى هذا المقصد (أي: مقصد القيام على الأطفال والنشء والطلاب)، فإن العيني يدلنا على مسلك منهجي لذلك، من خلال تأكيده على أن الفعل التربوي لا بد أن يتأسس على تقديم مبادئ تتوافق مع نمو الأطفال والنشء والطلاب العمري، والعقلي، والعاطفي، والجسدي، والمعرفي، والعلمي، والثقافي... .

التنظير التربوي والفعل التعليمي: - من ضيق التحيز الغربي إلى سعة العالمية والكونية-

وهذا المسلك المنهجي الذي دعا إليه العيني، لا يمكن تصوره إلا من خلال انبثاقه على ثنائيات ضدية، من خلال الابتداء بمحدود هذه الثنائيات المناسبة لمستويات نمو الأطفال والنشء والطلاب على جميع المستويات التي سبقت الإشارة إليها، وذلك بالتركيز على الابتداء «بجزئيات العلم قبل كلياته، أو بفروعه قبل أصوله، أو بمقدماته قبل مقاصده»²¹.

وبعد هذا التوقف البسيط عند نماذج من انشغالات طائفة من علماء الإسلام، بقضية التنظير لفعل "التربية"، من خلال توقفهم عند دراستهم للفظ "ربانيين"، مما قاسمهم المشترك هو التنظير للعملية التربوية التعليمية، نخلص إلى أهمية انبثاقها على مراعاتها لمستويات نمو الأفراد المستهدفين من الفعل التربوي، من خلال تأسيسها على الابتداء ب"صغار العلم قبل كبار".

على أن هذه الجملة (صغار العلم قبل كبار)، التي تناقلها مصادر تفسير القرآن الكريم، وامتد البخاري وشرحيه السابقين، لا يمكن تصورها واقعا تربويا خالصا، وتعليميا محضاً، إلا بربطها - كما صرح بذلك العيني - بالابتداء «بجزئيات العلم قبل كلياته، أو بفروعه قبل أصوله، أو بمقدماته قبل مقاصده»²²، مما يمثل تجسيدا تنظيريا للفعل التربوي التعليمي من خلال التجربة الإسلامية لتدريس العلوم الإسلامية والمعرف الكونية على حد سواء.

3. التنظير التربوي بين ضيق التحيز الغربي وسعة العالمية والكونية:

وبعد هذا التوقف البسيط عند نماذج من انشغالات طائفة من علماء الإسلام من مفسرين ومحدثين، ممن قاسمهم المشترك هو التنظير للعملية التربوية التعليمية، من خلال دراستهم للفظ "ربانيين"، نخلص إلى أن هذه النماذج المدروسة أطبقت على أهمية انبثاق الحدث التربوي التعليمي على مراعاة مستويات نمو الأفراد المستهدفين من الفعل التربوي، من خلال تأسيس الفعل التعليمي على الابتداء ب"صغار العلم قبل كبار".

على أن هذه الجملة "صغار العلم قبل كبار"، التي تناقلتها مصادر تفسير القرآن الكريم، بالإضافة إلى متن البخاري وشرحيه السابقين، لا يمكن تصورها واقعا تربويا خالصا، وتعليميا محضاً، إلا بربطها بالابتداء «بجزئيات العلم قبل كلياته، أو بفروعه قبل أصوله، أو بمقدماته قبل مقاصده»²³.

ولا يشك منصف يحترم نفسه وعقله، بأن هذه الأسس التي صرحت مصادر التفسير والحديث السابقة، وخاصة كلام العيني السابق، إنما هي عين الأسس العلمية التي قامت عليها "التربية الحديثة"، ذات التوجه الغربي.

وحتى لا نكون محترين إلى الثقافة الغربية، دائرين في فلك تقديس الغرب ومنظومته الثقافية والفكرية والحضارية، معتقدين بأنه لا يتصور نتاج علمي أصيل، ومعرفي محترم، خارج هذه الثقافة والحضارة الحاضنتين لهذه المعارف والعلوم، فإنه لا يصح نسبة قيام الفعل التربوي التعليمي على الأسس السابقة، إلى التربية الحديثة، ذات النشأة والتطور غربيا، ما دامت مصادر الفكر الإسلامي، في بعده التمثيليين التفسيري والحديثي، تؤسس على المبادئ التربوية ذاتها.

وبالمقابل، وحتى لا نكون كذلك محترين إلى ثقافتنا وحضارتنا الإسلاميتين، باعتبارهما أصل كل تقدم علمي، وازدهار معرفي، عرفته البشرية، فالواجب استبعاد ظهور هذه المبادئ التربوية من رحم الثقافة والحضارة الإسلاميتين فقط.

لذا، فإن التفسير العلمي الموضوعي لنشأة هذه المبادئ التربوية، إنما هو الفكر الإنساني في كونه وعالميته، وليس المتحيز إلى ثقافة محددة، ولا إلى حضارة بذاتها.

وعلى هذا، يمكن القول بأن التنظير للفعل التربوي التعليمي، إنما هو قضية كونية بشرية، ارتبطت بالإنسان من حيث هو إنسان، منذ أن خلقه الله تعالى، وأنزله إلى أرضه مستخلفا فيها، يؤدي وظيفته التوالدية الضامنة لاستمرار جنسه البشري على وجه هذا الكوكب، بما يقتضي ظهور أبناء وحفدة، يستلزم تربيتهم وتعليمهم.

ولهذا فليس غريبا أن يستأثر الفعل التربوي التعليمي باهتمام الإنسان في كل مراحل التاريخ. ومما حفظته لنا المصادر العلمية للإنسانية في بعض مراحلها، جهود فلاسفة اليونان ومفكرهم، وتصورات علماء الإسلام وفقهائه، وبصمات فلاسفة الغرب ومريهم... .

وهكذا، فإن انبناء الفعل التربوي التعليمي على ثنائيات ضدية (مثل: السهل قبل الصعب، والمركب قبل المعقد، والمحسوس قبل المجرد)، إنما هي أسس للتربية في بعدها الإنساني الكوني، في بعد تام عن تحيز مقيت لثقافة وحضارة بذاتهما، على حساب الثقافة الإنسانية الأخرى.

والخلاصة، فإن مراعاة نفسية الطفل في تعلمه للعلوم والمعارف، من البسيط إلى المركب، ومن السهل إلى المعقد، ومن المحسوس إلى المجرد، ليس مرتبنا بأصول التربية الحديثة أو غير الحديثة، وإنما يظل مرتبنا بالفكر التربوي التعليمي الإنساني الكوني، غير المتحيز لثقافة أو حضارة بذاتها.

وإذا اتضح هذا الأمر، فلم يعد لكلام الأستاذ عبد الله كنون مكان مقبول، بالنظر إلى أن المقدمة الآجرومية قد راعت «نفسية الطفل وأصول التربية الحديثة بالتدرج من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب»²⁴.

خاتمة:

الخلاصات والاستنتاجات:

- من مظاهر الهزيمة النفسية، والجهل بالذات الثقافية والحضارية لهذه الأمة، والتحيز المقيت للغرب ومنظومته الثقافية، إدعاءً أن التنظير للفعل التربوي إنما هو غربي نشأً وتطوراً وازدهاراً؛
- ومن لوازم هذا التصور نفى أي جهد تنظيري للفعل التربوي عن كل الأمم غير الغربية طبعاً، وخاصة الأمة الإسلامية؛
- إن التناول التاريخي لتفسير القرآن الكريم يؤكد أن مهمة التنظير للفعل التربوي كان من جملة اهتمامات المفسرين؛
- وهو اهتمام مشترك أيضاً بين تخصص علمي آخر، في علاقته بالحديث النبوي وشروحاته؛
- إن هذا التناول المشترك للتنظير للفعل التربوي من قبل رواد الفكر الإسلامي من مفسرين ومحدثين، يُقنِّد فكرة الاحتراب إلى الغرب ومنظومته الثقافية والفكرية والحضارية، باعتقاد أنه لا يُتصور نتاج في صيغته العلمية والمعرفية يُوصَف بالأصالة والجددة، خارج عن هذه الثقافة والحضارة الحاضنتين لهذه العلوم والمعارف؛
- إن التفسير العلمي الموضوعي لظهور التنظير للفعل التربوي ليس مرتبطاً بالثقافة الإسلامية، وإلا سقطنا في نفس الموقف المتحيز مع اختلاف الجهة المتحيز إليها (الثقافة الإسلامية عوض الغرب ومنظومته الثقافية)، وإنما هو مرتبط بالفكر الإنساني في كونه وعالميته؛
- وهذا يعني أن التنظير للفعل التربوي لم يكن حكراً على ثقافة وحضارة بشكل خاص، وإنما كان نشاطاً مشتركاً بين جميع بني البشر من خلال سعيهم تربية الأبناء على القيم والمهارات الكفيلة بأن يصيروا "صالحين" حسب المنظومة الثقافية والفلسفية والدينية الحاضنة لها.

التوصيات:

- يجب على الباحث عدم التسرع في نسبة إحدى القضايا للغرب دون أن يرجع إلى الثقافة الإسلامية، خشية الوقوف في التحيز للغرب ومنظومته الثقافية والحضارية دون وعي بذلك؛
- يجب على المسلمين - وخاصة المثقفين منهم - مواجهة التحيز للفكر الغربي، من خلال مشاريع تكشف زيف أسطورة "الغرب بناه العلم والمجد والحضارة"، من خلال إظهار جهود المسلمين وغيرهم في بناء المعارف والعلوم والفنون وغيرها؛

- وهكذا يسوقنا إلى التنبيه إلى قضية مماثلة في علاقتها بالتحيز للثقافة الإسلامية، مما لا تعدو أن تكون إشكالية مقيتة هي الأخرى، وإن اختلفت مع سابقتها في الجهة المتحيز لها، لكن الاتفاق حاصل على التحيز بالنظر إلى بعده الاستعلائي الإقصائي للآخرين؛
- صحيح أن للحضارة الإسلامية خصوصيتها القيمية التوحيدية، إلا أنها لا تعدو أن تكون كحلقة في سلسلة الحضارات والثقافات الإنسانية، التي تشكل مجتمعة في إطار المشترك الإنساني؛
- وبهذا النهج التفسيري الوسطي لظهور ونشأة القضايا الإنسانية، يمكننا دراسة كافة القضايا الإنسانية بوساطة رشيدة تنفي مظاهر الغلو والاحتقار عن كافة مساهمات الثقافات والحضارات الإنسانية، سواء في بناء العلوم وتطورها، أو في خدمة الإنسان والإنسانية تربويا، وصحيا، واجتماعيا، وسياسيا...

- ¹ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت808هـ)، دار الفكر، بيروت، ط1، 1424هـ-2004م، ص450.
- ² المقدمة الأخرومية هي كراسة تعليمية (أي: متن) في النحو العربي، ألفها محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المشهور بابن آجرؤم المزداد سنة672هـ/1273م، والمتوفى سنة723هـ/1323م. وللتوسع حول هذه المقدمة، يُنظر: الخال، سمير، النحو بالمغرب الأقصى: دراسات في بداياته الأولى، وتطوره، مع تحليل نماذج علمية ومنهجية، طبعة2018م، ص120-142.
- ³ وعبد الله كنون أحد العلماء المغاربة المعاصرين، توفي سنة 1409هـ/1989م.
- ⁴ كنون، عبد الله (ت1409هـ/1989م)، ذكريات مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج20 [جزء خاص بابن آجرؤم]، ص13.
- ⁵ السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت489هـ)، تفسير القرآن، تح ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، 1418هـ-1997م، ج1، ص335-336.
- ⁶ البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد (ت510هـ تقريباً)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط4، 1417هـ-1997م، ج2، ص60.
- ⁷ ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت542هـ)، المخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ج1، ص462.
- ⁸ القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م، ج4، ص122.
- ⁹ ابن جزري، محمد بن أحمد بن محمد (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تح عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1416هـ، ج1، ص157.
- ¹⁰ الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم (ت741هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ، ج1، ص372.
- ¹¹ أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تح صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج3، ص232.
- ¹² التعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ-1997م، ج5، ص348.
- ¹³ ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي (ت1224هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تح أحمد عبد الله القرشي رسلان، منشورات حسن عباس ركي، القاهرة، 1419هـ، ص1، ص373.
- ¹⁴ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير (دمشق) ودار الكلم الطيب (بيروت)، ط1، 1414هـ، ج1، ص507.
- ¹⁵ صديق خان، محمد صديق خان بن حسن بن علي القنوجي (ت1307هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1412هـ-1992م، ج2، ص272.
- ¹⁶ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، (رقم الحديث7352)، ج1، ص24.

- ¹⁷ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ج1، ص121.
- ¹⁸ العيني، محمود بن أحمد بن موسى (ت855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص43.
- ¹⁹ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج1، ص121.
- ²⁰ العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج2، ص43.
- ²¹ المصدر السابق نفسه.
- ²² المصدر السابق نفسه.
- ²³ المصدر السابق نفسه.
- ²⁴ كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج20، ص13.

قائمة المراجع:

- 1) القرآن الكريم؛
- 2) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت256هـ)، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ؛
- 3) الخال، سمير، النحو بالمغرب الأقصى: دراسات في بداياته الأولى، وتطوره، مع تحليل نماذج علمية ومنهجية، طبعة2018م؛
- 4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت808هـ)، دار الفكر، بيروت، ط1، 1424هـ-2004م؛
- 5) البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد (ت510هـ تقريباً)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض، ط4، 1417هـ-1997م؛
- 6) الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ-1997م؛
- 7) ابن جزري، محمد بن أحمد بن محمد (ت741هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تح عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط1، 1416هـ؛
- 8) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد (ت852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ؛
- 9) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي (ت745هـ)، البحر المحيط في التفسير، تح صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ؛
- 10) الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم (ت741هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ؛
- 11) كنون، عبد الله (ت1409هـ/1989م)، ذكريات مشاهير رجال المغرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الجزء20 [جزء خاص بابن آجروم]؛
- 12) السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار (ت489هـ)، تفسير القرآن، تح ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، 1418هـ-1997م؛
- 13) ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت542هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ؛
- 14) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م؛
- 15) ابن عجيبة، أحمد بن محمد بن المهدي (ت1224هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تح أحمد عبد الله القرشي رسلان، منشورات حسن عباس زكي، القاهرة، 1419هـ؛
- 16) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير (دمشق) ودار الكلم الطيب (بيروت)، ط1، 1414هـ؛

- 17) صديق خان، محمد صديق خان بن حسن بن علي القنوجي (ت1307هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن، تح عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1412هـ-1992م؛
- 18) العيني، محمود بن أحمد بن موسى (ت855هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.